..هل هو حقا من غير جذور؟

يعتقد الكثيرون أنه إذا كان لابد من الإحالة إلى سلف للمفكر الكبير نصر حامد أبوزيد، فإنه ليس من سلف للرجل إلا بعض المستشرقين الذين دأبوا على طعن الإسلام والكيد له، ومن يسير فى ركابهم من الوكلاء المحليين الصغار؛ وبما يعنيه ذلك من تصور إجتهاده مقطوع الصلة بالكليَّة عن تراث الإسلام الزاخر. والحق أنه إذا كان جوهر عمل نصر واجتهاده يقوم، فى العمق، على كيفية فى تأسيس العلاقة مع النصوص؛ لا بما هى علاقة سلطة، بل بما هى علاقة حوار، فإنه يلزم التنويه بأن هذا التصور، الذى يقوم عليه اجتهاد الرجل، إنما يضرب بجذوره فى قلب اللحظة الأكثر مركزية التى تحددت فيها مصائر الإسلام بأسره؛ وأعنى بها لحظة الفتنة. وفقط فإن هذا التصور قد راح يتعرض لعمليات إقصاء وإزاحة انتهت، ليس فقط إلى إخراجه من ساحة الإسلام، بل وإلى إعتبار حامله خارجاً عن الدين والملة.

د.على مبروك

فعندما اتجه الصحابي الجليل "عمار بن ياسر" - إبان وقعة صفين- بخطابه إلى بني أميَّة قائلاً: "نحن ضربناكم على تنزيله، واليوم نضربكم على تأويله"، فإنه كان يكشف عن وعي لافت بحقيقة أن الصراع الذى تفجَّر فى تلك الوقعة الأسيفة- التى لعبت الدور الأبرز فى توجيه ما جرى فى الإسلام على صعيد السياسة والثقافة- هو صراعٌ على التأويل، فى الجوهر. وإذا كان سؤال التأويل هو، على نحو ما، سؤالٌ عن الكيفية التى تتأسس بها العلائق مع النصوص، فإن ذلك يعني أن ما جرى آنذاك كان، فى أحد وجوهه، صراعاً على كيفية تأسيس العلاقة مع النص (الذى هو القرآن بالطبع).

وللمفارقة فإن التأمل فى مواقف الفريقين المتقاتلين فى صفين، يكشف عن كيفيتين متباينتين فى تأسيس العلاقة مع النص/القرآن. فإنه إذا كانت واقعة رفع المصاحف على أسنة الرماح تمثل استدعاءاً صريحاً للنص ليلعب دوراً فى الصراع السياسي المحتدم، فإن ما تنطوي عليه تلك الواقعة من دلالة القرآن والربط بين المصحف والرمح أو السيف، يكشف عن تصور "بني أميَّة" للعلاقة مع النص بما هو قوة إخضاع، تحققوا من أنها أكثر نجاعة من السيف نفسه؛ وذلك من حيث ما تأدت إليه من إيقاف حرب لم يفلح السيف وحده فى وضع حدٍ لها. وهكذا فإن النص، ومع بني أميَّة بالذات، كان لابد أن يتحول إلى سلطة، أو- بالأحرى- إلى قناع لسلطة تحتجب خلفه وتمارس تحت رايته أقسى ضروب التسلط والقمع. فإنه إذا كان السيف هو أداة بناء السلطة وحراستها، فإن ما حدث من تعليق النص/القرآن عليه، سوف يجعل منه (أى القرآن) محض امتدادٍ للسيف فى تثبيت نفس السلطة وحراستها. وبالطبع فإنه حين يصبح دور النص هو حراسة السلطة، فإن تلك السلطة سوف تكون هى الأحرص- حماية لنفسها- على تحويله، هو نفسه، إلى سلطة؛ وبما يعنيه ذلك من التعالي به عن إمكانية أن يكون موضوعاً للقراءة والسؤال، حيث ستصبح مساءلة النص مساءلة لسلطة السياسة التى تحتجب خلفه.

وهكذا فإنه يتم- ضمن هذا السياق- إلغاء التمييز بين "سلطة السياسة" وبين "سلطة النص"؛ وعلى النحو الذى جعل معاوية يعتبر ما قضى به من توريث سلطته لإبنه يزيد، بمثابة القضاء النازل من الله؛ والذى لا راد له أبداً. وليس من شك فى أن تحوُّل النص إلى سلطة لابد أن يدخل به إلى دائرة التكرار والجمود، وذلك لاستحالة التعاطي معه، بما هو سلطة، على نحو يسمح بتفجير دلالاته الكامنة الخصبة. وفقط سيصبح النص "أيقونة" يتبرك بها الناس ويتمسحون بها ويتمتمون بمفرداتها، ولكنه سيفقد كل حياته وديناميته.

وإذا كانت تلك الكيفية فى العلاقة مع النصوص هى التى تحققت لها الهيمنة والسيادة كاملة فى الإسلام، فإن ما صار إليه الإمام علي- فى تعليقه على ما قام به بنو أميَّة من رفع المصاحف على أسنة الرماح- من "إن القرآن كتاب مسطور بين دفتين، لا ينطق بلسان، وإنما ينطق عنه الرجال"، إنما يكشف عن كيفية أخرى فى تأسيس العلاقة مع النصوص؛ تنبني على الإقرار بدور بالغ المركزية للإنسان فى إنتاج دلالة النص، وبما يترتب على ذلك من ضرورة تصور النص، لا بما هو قوة إخضاع وإجبار، بل بما هو ساحة للتفاعل والسؤال والحوار. ولعل ذلك ينبني على حقيقة انه إذا كان الإنسان يدخل (وعياً وواقعاً) فى تركيب وحي التنزيل (وهو ما يُستفاد، من جهة، من تعدد وتباين لحظات هذا التنزيل بحسب حاجات الواقع ومستوى تطور الوعي. كما يُستفاد، من جهة أخرى، من حقيقة أن القرآن نفسه قد ظل يتنزل وحياً على مدي يقترب من ربع القرن متجاوباً مع أسئلة الوعى والواقع) ، فإنه يستحيل تصور هذا الإنساني معزولاً عن فعل التأويل.

وهنا تحديداً تضرب طريقة نصر فى مقاربة النص- لا كسلطة، بل كساحة للحوار والسؤال- بجذورها العميقة. إنه يتواصل، مُسلحاً بكل ما تم إنتاجه على مدى القرون من أدوات ورؤى منهجية ومعرفية، مع ما يمكن القول أنها طريقة الإمام علي فى مقاربة النصوص. وغنيٌّ عن البيان أنه إذا كانت الهزيمة السياسية للإمام علي قد إنتهت إلى الإقصاء والتهميش الكامل لطريقته، فإن أى سعى لاستعادتها من ركام المُهمَش والمسكوت عنه كان لابد أن يجد نفسه، لا فى مواجهة سلطة السياسة فقط، بل وفى مواجهة سلطة السائد والمستقر؛ وهى الأعنف والأعتى.

وإذا كان الباب قد انفتح واسعاً مع هزيمة الإمام علي وإقصاء طريقته، أمام بني أميَّة لتثبيت طريقتهم فى تأسيس العلاقة مع النصوص بما هى علاقة سلطة وإخضاع- وذلك كجزء من سعيهم إلى تحصين سلطتهم وحراستها- فإنهم قد راحوا يراوغون معتبرين التنكر لطريقتهم تلك، بمثابة نوع من الإنكار للنص نفسه. ولقد كانت تلك المراوغة- وتظل للآن- هى السلاح الذى يجرى الانتقام به من نصر أبوزيد؛ حيث جرى التعامل مع دعوته للتحرر من "سلطة" النصوص، بإعتبارها دعوة للتحرر من النصوص. وبالطبع فإنه إذا كان لا يمكن لأحدٍ، ألبتة، أن يقول بإنكار الإمام علي للنص، حيث الأمر يتعلق فقط بإنكاره لضرب من العلاقة معه؛ فإنه لا يمكن، بالمثل، القول بإنكار نصر أبوزيد للنصوص، بل الأمر يتعلق أيضاً بإنكاره لضرب من العلاقة معها تكون فيها "سلطة" لا سبيل بإزائها إلا للترديد والتكرار، وليست "نقطة بدءٍ" ينطلق منها الإنسان، عبر السؤال والحوار، إلى بناء وعي مطابق بعالمه. وللمفارقة فإن تصور النص كسلطة لا يؤول فقط إلى إهدار الوعي الذى لن يكون مسموحاً له، بإزاء تلك السلطة، إلا أن يكرر ويردد، بل وينتهى إلى الإفقار المعرفي الكامل للنص نفسه؛ وذلك من حيث يستحيل عبر الترديد والتكرار الكشف عن كل ما يكتنزه النص من ممكنات خلاَّقة هى أساس حياته الحقة. وإذن فإنه التباين بين موقفين من النص؛ أحدهما يجعله قوة إبداع، والأخر يجعل منه قوة إخضاع. ولقد إنحاز نصر للموقف الأول، وراح يسعى فى سبيل بلورة إطار مؤسسي يستوعب إجتهاده ويقوم عليه؛ وهو الإطار الذى بدأ يتفتح فى الفضاء الإندونيسي من خلال المعهد الدولي للدراسات القرآنية الذى كان محط إهتمام عديد من الشخصيات المؤثرة فى عالم الإسلام كان على رأسهم الرئيس الإندونيسي الراحل عبدالرحمن واحد وغيره من الذين يدركون أزمة المجتمعات الإسلامية مع نفسها ومع غيرها، ويؤمنون بقدرة الإسلام على الإسهام الفاعل فى إغناء عالمنا الراهن.